قصة قصيرة:

«فقط فيما لو...»

لين براد شو

ثمّة أمرٌ لم أحبّه فيه. لم أُخفِه عنه، وكان يُدرك أن ذلك الأمر يقضُّ مضجعي. ولكن لأعترف أنّ ثمّة أموراً أخرى لم يحبّها فيّ، فلَعَلَ كفَّتَينا تَساوَتا. ولأعترف أيضاً أنّه كان يحلو لي النوم وحيدةً في الفراش. مساحةُ الفراش لي وحدي، وهذا يمكّنني من أن أضع رأسي إزاءَ الزاوية اليسرى القصوى من الفراش، وقدميّ إزاء الزّاوية اليمنى القصوى. ظننتُ في أول أيامِ علاقتي به أني أحتكرُ أكبر من المخصّص لي في الفراش، وأنّ هذا تحديداً ما يُفسِّرُ عدم رغبته في النوم معي. عندما كنّا نقضي الليل معاً في شقته، كان يستلقي إلى جانبي حتى يباغته النعاس، فيقبّلني متمنّياً لي ليلةً طيّبة، ثم يَتَسَلَّلُ إلى الفَرْشةِ الموضوعةِ على الأرض. وفي الصّباح، بدلاً من أن أستيقظ إلى جانبِ جسدٍ دافىء، كنت أستيقظُ على قرع أبوابِ الخزائنِ في المطبخ وعلى قرقعةِ الملاعق فيما كان يُعِدّ القهوة. كانَ ليقولَ لي «صباحَ الخير» إنْ لمحَ عيْنيّ مفتوحتيْن وهو في طريقِهِ إلى الحمّام. وأحياناً، كنتُ أتظاهَرُ بعدمِ اليقظة (بالرغم من أنّ الضجّة كانت لتوقظ دبّاً من سُباته)، فأغلقُ عينيّ بشدّة لكيْ لا أَدَعَ خُطْبتي التقريعيّة تَنْسَلُّ من أعماقي المتفجرّة. كنتُ أستلقي دونما حراك، رأسي يواجه الجدار، حتى ينتهي من ارتداء ثيابِهِ ووضع حقيبته الجلديّة على كتفه استعداداً للذهاب إلى الجامعة. وعندما أسمع يَدَه تُعَالِج قبضة بابِ الخروج، أُطلقُ «وداعاً» سريعةً من شفتيَّ، تستحوذُ على قِواي كُلّها بحيث أنّي لا أستطيع التفوّه بأيّ شيء آخَرَ قد أعتذرُ عنه لاحقاً. وكان يُجيبني بالمثل، ويغلق البابَ خلفه. وما أن يُغلق الباب، حتى أحسّ كأنّهُ قد أطلقني من الوضع الثابت الذي تسمَّرْتُ عليه حينَ كان وجهي يلامسُ الجدارَ. أحسّ بجسدي يتمطّى، فأنهضُ من الفراش وأديرُ الموسيقى، وأصرخ.

وكان الوضع أسوأ حين نقضي الليل في شقّتي أنا. فقد كان يجرّ الفرشَة من غرفة الاستقبال إلى غرفةِ النّوم، وينصبها أبعد ما يكون عن السرير، ثم يتمنّى لي ليلة سعيدة، من هناك حيثُ يستلقي! وحين ينبلج الصّباحُ ويفيق من نومه، أحسّ بمسؤولية أعظم: عليّ أن أفيقَ معه فَلَعَلَّه بحاجةٍ إلى أمرٍ ما. ولكنّه كانَ أقلّ ضجيجاً في شقّتي، ولذلك فإنّ انزعاجي في الصّباح يكونُ أقلّ في هذه الحال. وكنتُ أنهضُ من سريري المتوحِّد إلاّ منّي، ويأتي أوّل عناقٍ في الصّباح وقوفاً.

صديقاتي كُلهنّ وقفن إلى جانبي. فالحال أنّ الالتصاقِ الذي تشعر به المرأةُ بين ذراعي الرّجل والاستيقاظَ إلى جانبه، لا يقلاّن بالنسبة للمرأة على الأقل، عن الجِنْسِ نفسِه. والحقيقة، أني قُمت باستطلاعٍ واسِعٍ في صفوفِ صديقاتي، وتبيّن لي أنّ ذلكَ الالتصاقَ يشكّل الجزءَ الأكثرَ أهميّة من الجنس. إنّ أفضلَ

ـريق إلى قلبِ المرأة إنّما تمرُّ عبرَ احتصانها بقوّة لأطـول مدّةٍ ممكنة. ولكن دعني أُضِفْ أنّه كان، بغضّ النظر عن ساعـاتِ النَّوم البغيضة هذه، مُعَانِقاً رائعاً. كان يقبّلني ويداعبني طويلاً فوقَ الشراشفِ. بَيْدَ أنّنا ما أن نختبىء تحت الشراشفِ، حتى يضيق ذراعاً بالثبوت، ويبدأ بالتقلّب. قالَ لي إنّ الليل هو الوقت الوحيد الذي يحسّ فيه بحرّيتّه المطلقة. لم يكن لينامَ كما ينبغي على النائم أن ينام. إنّه يُفكّر فيما معظمنا يحلم. وأحياناً، يُحبّ أن يديرَ الموسيقى أو أن يشعلُ لفافةً من التبغ. لكنّي أنا شخصياً أحبّ أن أنامَ عندما أكون نائمة!

أما بالنسبة لأصدقائه، فقد قالَ إن كثيراً منهم كانَ يشكو من المشكلة عيْنها، وإنّ أفضلَ صديقٍ له لم ينـم إلـى جانبِ أيّ كان. وفي اعتقادي أنّ صديقَه هذا لن ينامَ إلى جانِبِ أحد طول حياته!

أَوَ تكونُ هذه المشكلة عصيَّةً على الحلّ؟ وهـل إذا جَمَعنـا المستقبل تحتَ سقفٍ واحد، سأقضي بقيّة لياليَّ وحيدةً في الفِراش؟ هل سيظلّ المشهدُ الأوّل الذي يطلع عليّ في الصباحِ جِداراً؟

ثمّةَ أمرٌ هام يدأبُ الرّجال على تناسيه، وهو عزم المرأة على الظّفَرِ بمـا تريدُه حينمـا تُعِـدُّ العـدَّةَ له. ولا شكّ أنّ وسيلتهـا للحصولِ على مبتغاها قد يُسبّب نوعاً من الإزعاج للرّجل، لكنّ المرأةَ ـ بشكلٍ عام ـ يتملّكُها الاقتناع بأنّ ما تقومُ به إنّما هو في صالِحِ الاثنين معاً. كنتُ موقنةً أنّه سيصيرُ أكثر سعادة إن هو أفاقَ إلى جانبي، ولكنْ عليّ أولاً أن أحوّل خيارَهُ الآخرَ إلى جحيم!

كما أشَرْتُ آنفاً، الاستيقاظُ على الضجّة يقضُّ مضجعي. ولكن لأقرّ باديء ذي بدء، بأنّني لم أكن أُحبّ الصباحات على وجهُ العموم. سَلْ أية صديقةٍ شاركتني الغرفةَ وستحذّركَ من مغبّةِ التكلّم معي في الصَّباح: «انتظر حتى تكلّمك هي أولاً». حَسَناً، كان يكرهُ هذا فيَّ. وبما أنّه لم يكن ينام كما ينبغي للنائـم أن ينام، فإنّ الصَّباح لم يكن يشكّل بالنسبة له، وحسب اعتقادي، مرحلةً انتقالية كما يُشكّل الصَّبـاحُ بالنسبـة لي. ولـذلك ما كاد الشهر الثالثُ من علاقتنا أن يطلّ، حتى تحوّلتُ إلى شخصٍ أكثرَ ضيقاً بالآخرين عند الصَّباح بدلاً من أن أكون أشدَّ امتاعاً. وكانَ لا مندوحةَ من مواجهتنا الأولى. فقد أصرّ على أنّي أفسد أجملَ وقتٍ في يومه، وأنّ علي أن أتدارَكَ الأمر قبلَ فواتِ الأوان. (دعني أضف للتوّ أنّه كان ذا مزاجٍ مستوٍ بشكلٍ لم أعهده مع أحدٍ غيره من قبل، إلا أنّ هذا الأمر يعني بدوره أنّ طاقته على احتمـالِ مزاجيّة الآخرين ضئيلة جداً). ووافقته الرأيَ أنّ عليّ أن أقـوم بجهدٍ للتخلّص من هذه النقيصة في شخصيّتي، لكنّي زدتُ أنّه يتوجب عليه أن يُساعِدَني في ذلك. تمنّيتُ عليه لو أنه «يحاول» أن ينامَ إلى جانبي إلـى أن يحسّ بعـدم قدرتـه علـى الثبـوت، وحينذاك فقط ينتقل إلى فَرشَتِهِ بعد أن يكون النومُ قد استغرقَني. وتمنّيتُ عليه كذلك أن يتجنّبَ صفـق أبـوابِ الخزائـنِ وقـرع السكاكين والأشـواك بعضهـا ببعض، وأن يدبَّ إلـى السـرير ويوقظني بقبلة فحسب، وعندها لن أكون ـ كما وعدته ـ منزعجةً أبداً. وأخبرتُه أنّني أعتقد أنّ حاجَتَه إلى الاستقلالِ الليلي الذي تَبَجّحَ بهِ لم يكن في الواقع سِوى تعبيرٍ عن اضطرابـهِ الدّاخلي إزاء علاقتنا المشتركة. كانَ قد عَقَدَ العزمَ على أن لا يُلزِمَ نفسه بأيّ أمرٍ. لقد رَمزت المسافةُ بين سريري وَفَرْشتِـهِ إلـى البَـوْن الذي ترجّى أن يبقيَه بينَنا. حين أخبرته بذلك، ضحك، لكنّه لم يَنْفِهِ! ولذلك، شرعنا في تطبيق الترتيباتِ الجديدة.

وفيما كُنّا نستعدُّ للنَّوْم، كَان يبسطُ فرشَتَهُ على الأرض ويقول في كل ليلةٍ: «فقط فيما لو...» (ويعني بذلك، كما لا يخفي، أنّه قد بَسَطها لينامَ عليها في حال أرّقَهُ النومُ إلى جانبي). وعلى امتدادِ الشهورِ اللاحقة كان رَجُلي يزحف إلى فرشتِه اللعينة حين يُخيَّلُ إليه أنّي قد نمتُ. وفي الصَّباح، يدبُّ إلى السرير مُزيحاً الشراشف بتؤدة، ويَكونُ عناقُ الصباح الأوّل كما ينبغـي علـى العناقِ أن يكون. لقد توقفت عينايَ عن مواجهةِ الجدارِ البارد، وتحوّلتا إلى دفْءِ عينَيْهِ السّوداوَين المُهَدّىء.

وها أنّنا قد قطعنا شَوْطاً لا بأسَ بِهِ، بَيْدَ أن هدفي لمّا يتحقّق. وكما لو كانَ الأمرُ سحراً، فقد صارت خمس وعشرون سنةً من المزاجيّة الصّباحية نسْياً منسياً. آمَنْتُ أنّـه قد أضحـى يرى فيَّ شخصاً يلذُّ له أن يفيقَ معه (بَيْني وبَيْنَك، أيّهـا القـاريء، فإنّ ذلك أمرٌ كنتُ على يقينٍ منه دوماً، ولكن الغايَةَ ـ كما سبقَ أن أشرت ـ غالباً ما تتطلّب بعضَ الإزعاجِ، حقيقياً كانَ أم وهمياً). وفيما انْطَوَت الأسابيع، بدأت ظاهرة مثيرةٌ للاعجابِ تطفو إلى سطحِ الأحداث: فقد كانَ يبسط فرشته في بعض الليالي «فقـط

فيما لو. . .»، لكنَّه سُرعانَ ما يغرقُ في النوم في سريرنا ولا يستيقظ حتى بزوغِ الفجر. حين حصل ذلك أوَّل مرّةٍ، اعترتني الغِبطةَ، وحينَ أفَقْتُ شعرتُ برغبةٍ عارمةٍ في التوجّه نحو النافذة، وفي إيقاظِ كُلِّ الجيران صارخةً مِلْءَ صدري: «لقد نامَ معي! لقد نَامَ معي!». ولكن بِما أن سكّان نيويورك لا يقدّرون مناسباتٍ كهذه حقّ قدرها، فقد استعضت عن ذلك العمل بتقبيله ألف قبلةٍ أو تزيد. وتذوَّقْتُ طعمَ النَّجاح!

صحيحٌ أنّ هذا النَّجاحَ لم يتحقَّقَ بين لَيْلَةٍ وضُحاها، ولكن المهم أنَّه قد تحقّق، وها أنّي الآن أنظُرُ بنشوةٍ إلى الفَرْشة المُستَندة إلى الجدارِ طوالَ الليل. وربّما تكمن المفارقةُ في أنّي لم أعد أحسّ بالانزعاجِ عند الصَّباح، بل صرتُ أتطلّع بشوقٍ إلى أن أستيْقظَ إلى جانِبه. وحينئذٍ أدركتُ أنّ الأمرُ لم يكن مسألةَ الظَّفَرِ بما أردت، بل إنّه كان على كُلٍّ منّا أن يُبَدِّل شيْئاً من نَفْسِهِ للآخر. أما بالنسبة لِمَا كانت تعنيه مسافة الثلاثة أقدام بين سريري وفَرْشته، فقد أضحت هي الأخرى أمراً نحنُ في غنىً عنه.

ترجمها عن الإنكليزية
س. ا

دار الآداب تقدم

- مؤلفات الدكتور سهيل إدريس
- روايات الأستاذ حنّا مينه
- مسرحيات الأستاذ سعدالله ونوس
- روايات الدكتورة نوال السعداوي
- مؤلفات روجيه غارودي
- مؤلفات ريجيس دوبريه
- مؤلفات كولن ولسن
- روايات ألبرتو مورافيا
- روايات الأستاذ جبرا ابراهيم جبرا
- سلسلة معاجم "المنهل"
- المجموعة الكاملة لمجلة "الآداب" (٣٢ مجلداً)
- سلاسل الأطفال:
  - مؤلفات الأستاذ زكريا تامر
  - مؤلفات الأستاذ سليمان العيسى
  - مؤلفات الأستاذ بيان الصفدي

دار الآداب — عين التينة - فردان، بناية فلاحة (تجاه السفارة الأردنية)، ص.ب ٤١٢٣ تلفون ٨٦١٦٣٣